الغزالي وعلم النفس

اللاشعور والعقل الباطن

للاستاذ حمدى الحسينى

- ٦ -

أما وقد انتهينا من التحدث عن الشعور ومظاهره الثلاثة : الادراك والوجدان والنزوع فى نظر الامام الجليل ابى حامد الغزالى ، فقد وجب علينا ان نتحدث عن اللاشعور فى نظره ايضاً . وسنرى فى معرفة هذا الرجل العظيم باللاشعور أو العقل الباطن ما يستثير اعجاب ذوى الألباب من العاكفين على الدراسات النفسية الحديثة ، العارفين بأن اللاشعور أو العقل الباطن لم يكن معروفاً عند علماء النفس الى أواخر القرن الماضى حتى نشر العالم النمساوى العظيم سيجمند فرويد نظرياته فى اللاشعور والتحليل النفسى .

أجل ، كان علماء النفس يعتقدون ان ليس فى حياة الانسان النفسية غير الشعور ولكن علماء اليوم لا سيما مدرسة (فرويد) يعتقدون ان الشعور ليس سوى جزء صغير من حياة الانسان النفسية ، وأن سلوك الانسان فى حياته ليس نتيجة هذه الخواطر والأفكار التى يكون الانسان شاعراً بها بل هو نتيجة تفاعل عوامل نفسية كثيرة . ولذلك لا يكون الانسان عالماً بها

للعين فيه مراد . ثم يسأله المهدى : من أى العجم أصلك؟ فيقول: من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران. أهل طخارستان !

ليت شعرى ما يكون شعور الخليفة على هذا الذى يتزيد ويتعالى ، ويحدث عن نفسه وقومه هذا الحديث الغالى أمام خليفة لا يرى فى الأرض يدا فوق يده ولا أحدا مع ذاته .

ولكنها نحيزة بشار فى ذهابه بنفسه ومعرفة حقها .

ولم يكن طنزه بخال الخليفة وسخريته منه إلا ضربا من احترام النفس . فقد حدثوا أن يزيد بن منصور الحميرى ، دخل على المهدى وبين يديه بشار ينشده شعرا ، فلما فرغ بشار أقبل عليه يزيد ، وقال له : يا شيخ ! ما صناعتك ؟ فقار بشار ساخرا: أثقب اللؤلؤ ! ، فضحك المهدى ثم قال لبشار : - أغرب ويلك أتتنادر على خالى ! فقال : وما أصنع به ، يرى شيخا أعمى ينشد شعرا ، ويسأله ما صناعته ؟ .

إذن لم يهتم بشار لاستنكار الخليفة ، ولكنه مضى فى تبرير سخريته وهزئه من خال الخليفة ، ولعمرى ما يكون هذا إلا من نفس مرة لا تلتوى ولا تتموج ، ولكن ذلك ولا شك تارك من السخيمة عليه فى نفس الخليفة ما هو تارك !

هذا الحفاظ المر والخلق الوعر ، لا يصلح قط للاتصال بالخلفاء والاحتكاك بهم . لأنه يورث الذل والعتب ، بل يورث الانتقام من الخليفة إذا ما عرض كرامة الشاعر للجرح والثلم .

وإن الخليفة لتنفلق نفسه دون بشار يوما ، وإن بشارا لينشده فيحرمه الخليفة ، فينطلق الشاعر إلى بيته فينفتق ذهنه عن هذه القصيدة الحلوة المرة ، الفاغرة اللامزة النازلة من الشعر الحر بأرفع منزل :

خليلى إن العسر سوف يفيق ... وإن يسارا فى غـد لخليق

وما كنت إلا كالزمان: إذا صحا ... صحوت، وإن ساق الزمان أموق

خليلى إن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق

وكنت إذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضييق

ثم يختمها بهذين البيتين الرقيمى الشأو الآخذين بذؤابة الإحسان :

وما خاب بين الله والناس عامل ... له فى التقى أو فى المحامد سوق

ولا ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق !

وتمتلىء نفس الخليفة سخيمة على بشار ، فما يكاد يشى به يعقوب بن داود إلى المهدى ، حتى يتذرع هذا باسم الزندقة ، ويأمر به فيضرب بالسياط حتى تنقطع أنفاسه .

فيالك من شجاعة تورد صاحبها المتالف ، وتحمله على أوعر المراكب ، ولو قد أبصر بشار لقد نجا !

كامل السيد شاهين
مبعوث الأزهر إلى السودان

الجليد فى البحر . فان الجزء الظاهر منه فوق سطح الماء صغير جداً بالنسبة الى الجزء المغمور فيه ؛ فالتيارات السفلية هى التى تؤثر فى حركة جبل الجليد وتوجه تسييره . ولهذا قد يرى سائراً ضد التيارات البحرية السطحية رغم انها قد تبدو قوية أحياناً . فالتيارات السفلية والجزء المغمور فى الماء تشبه اللاشعور وأثره فى شعور الانسان وتوجيه سلوكه .

ولنر الآن هذا اللاشعور أو العقل الباطن فى نظر الغزالى . ونحن لا نستطيع ان نعرف رأى الغزالى فى هذا الموضوع الجليل قبل ان نعرف ان الغزالى تصدى لتفسير معانى القلب والروح والنفس والعقل فأعطى هـــذه الأسماء الأربعة معنى واحداً مشتركاً بينها جميعاً وهو ما نسميه نحن باللاشعور أو العقل الباطن ويسميه هو باللطيفة الربانية التى لها بالقلب الجسمانى تعلق . وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهى المدرك العالم العارف من الانسان والمخاطب والمعاقب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسمانى .

وقد تحيرت عقول اكثر الخلق فى ادراك وجه هذه العلاقة . وان تعلق القلب بها يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات والمستعمل للآلة بالآلة والمتمكن بالمكان ثم يتعمق الغزالى فى هذا المعنى فيقول « انه يراد بالنفس المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان وهى الصفات المذمومة التى تحتاج من أجلها الى مجاهدة وكسر . ويراد بالنفس أيضاً تلك اللطيفة التى هى نفس الانسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب ممارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للشهوات معترضة عليها سميت النفس اللوامة . وان تركت الاعتراض واذعنت واطاعت لمقتضى الشهوات سميت النفس الأمارة بالسوء . وعلى هذا فتكون النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة غاية الحمد . ثم يقول ان العقل قد يراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله العقل والثانى قد يكون تلك اللطيفة التى ذكرت من قبل .

٣٤ ، ٣٥

ولا شاعراً بأثرها . فان الانسان يعمل فى هذه الحياة ويتحرك مدفوعاً بعوامل نفسية كثيرة مختلفة خفية عنه مستقرة فى قرارة نفسه . ولا سبيل الى تسلطه عليها . لأنها ليست خاضعة لإرادته وليس له علم بها .

فاللاشعور اذن هو قرارة النفس وقاعها . تتجمع فيه ذكريات قديمة منسية وغرائز حيوانية ضارة لا يرتضيها المجتمع كالقسوة والشره ومحبة النفس . ومخاوف كثيرة متعددة متضاربة . وعواطف وامان وعادات تتفاعل بعضها مع بعض . توجه سلوك المرء على غير علم منه . ولهذا يمثل العلماء هذه الحالة النفسية بجبل

ونحن نرى فى هذه اللطيفة التى يفسر بها الغزالى معانى القلب والروح والنفس والعقل اللاشعور واضحاً جلياً ونرى العقل الباطن (فى تفسيره للنفس بأنها المعنى الجامع لقوة الغرائز وتيارات الميول الانسانية) ظاهراً نقياً . وكأن الامام الغزالى أراد ان يعطينا صورة واضحة لعلاقة العقل الباطن بالسلوك الانسانى فلجأ الى التشبيه بالجيل وضرب المثل الحكيم فافترض ان للقلب أو العقل الباطن جنوداً كثيرة منها ما يرى بالأبصار ومنها ما لا يرى الا بالبصائر ، فوضع العقل فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، أما الجند المشاهدة بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة جميعا خادمة للعقل الباطن مسخرة له فهو المتصرف فيها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرداً ، فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، واذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، واذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم . فجملة جنود العقل تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث إما الى جلب المنافع وأما الى منع الضار ، وتدبير هذا الباعث بالارادة . والثانى هو المحرك الأعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا بالقدرة . وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار . والثالث هو المدرك المتصرف للاشياء وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك . ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود ، فان قوة

البطش إنما هي بالأصابع وقوة البصر إنما هي بالعين وكذ سائر القوى . والجند المدرك بعضه قد أسكن منازل ظاهرة كالحواس الخمس وبعضه اسكن منازل باطنة كتجاويف الدماغ فان الانسان بعد رؤية الشيء يغمض عينيه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب الجند بعض ذلك الى بعضه الآخر ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود اليه ، ثم جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات في الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ . ثم يذكر الغزالي العقل الواعي وهو عقل المعرفة وعلاقته بالعقل الباطن في تدبير سلوك الانسان فيعطي العقل الواعي حق الرقابة على رغبات العقل الباطن وتصرفاته وسلوكه فيعمل كل هذا بدقة متناهية تدل على فهم عميق لنفسية الانسان العجيبة يقول (ان جند الغضب والشهوات قد ينقادان للعقل انقياداً تاماً فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه . وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يعلكاه ويستعبداه وفي هذا هلاكه) وللعقل جند آخر وهو (العلم والحكمة والتفكر) وحقه أن يستعين بهذا الجزء على الجند الآخرين ؛ فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب وبقية الشهوات هلك يقيناً . ثم يضرب الغزالي الأمثال على هذا فيقول : مثل نفس الانسان في بدنه اعني النفس اللطيفة كمثل في مدينته ومملكته ملك ، فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها وقواها ، ومدينتها وجوارحها بمنزلة الصناع والعملة ، والقوة المفكرة له كالمستشير الناصح والوزير العاقل ، والشهوة كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ؛ والغضب والحمية له كصاحب الشرطة ، والعبد الجالب الميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى انه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة . كما ان الوالي في مملكته اذا كان مستعينا في تدبيراته بوزيره ومستشيراً له ومعرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث مستدلا باشارته في ان الصواب في نقيض رأيه وأدبه وجعله مؤتمراً له ومسلطاً من جهة هذا العبد الخبيث واتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوساً لا سائساً ومأموراً لا آمراً استقام أمر بلده وانتظم العدل في مملكته ، فكذا النفس متى استقامت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوات واستعانت باحداهما على الأخرى ، تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها » .

نرى فيما تقدم من القول ان الغزالي قد أدرك ببصيرته النفاذة وتأمله العميق هذا الشيء الذي سماه فرويد فيما بعد بالعقل الباطن ادراكاً تاماً ، وعرف حقيقته معرفة صحيحة ، واطلع على وظائفه وخفاياه اطلاعا واسعاً حتى يخيل لنا ونحن نقرأ ما كتب الغزالي عن العقل الباطن واسراره ومكنوناته اننا نقرأ لفرويد أو أحد تلاميذه في القرن العشرين لا للغزالي في منتصف القرن الخامس للهجرة . ويبدو لنا جلياً فيما سقناه الآن من أقوال الغزالي ان الغزالي عرف جيداً ان العقل الباطن في الانسان هو الانسان نفسه بما فيه من غرائز قديمة وميول فطرية وعواطف كامنة ورغبات مكبوتة وذكريات مستقرة . وانه المدرك العالم العارف ، وانه المخاطب والمعاقب والمطالب . وعرف جيداً أيضاً العقل الواعي وحقيقته وانه ليس الا العلم والحكمة والتفكر ، وأن العلم والحكمة والتفكر بمنزلة المشير الناصح والوزير العاقل من العقل الباطن ، وعرف الصراع العنيف الذي يكون بين رغبات العقل الباطن ورغبات العقل الواعي .

وقد وصف هذا الصراع وصفاً دقيقاً جميلا . وفوق هذا كله فقد اعطى قاعدة جليلة الخطر في التربية وتوجيه السلوك الانساني وهي قاعدة الكف والتوفيق : كف الرغبات الضارة عن اشباع نفسها وكبتها عن تحقيق ذاتها وتسهيل الطرق للرغبات النافعة للفرد نفسه أو لجنسه فتتبع نفسها وتحقق ذاتها يقول (ان النفس متى استقامت بالعقل أي العقل الواعي عقل العلم والحكمة والتفكير) وأدبت بحمية الغضب ، ويعني بحمية الغضب غريزة التغلب والسيطرة وسلطتها على الشهوات ، واستعانت باحداها على الأخرى أي بغريزة على أخرى تارة بأن تقلل وثبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمعها وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها اعتدلت قواها (أي مجموعة النفس الانسانية) وحسنت أخلاقها (أي سلوكها) .

محمد المهدي الحسيني